المصدر الثاني: السنة النبوية:

أولاً: التعريف اللغوي:

السنة في اللغة تطلق على السيرة، حسنة كانت أو قبيحة.

قال خالد بن زهير الهذلي:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها[1]

وتطلق -أيضاً- على الطريقة، مآخوذة من السَّنَنِ، وهو: الطريق، يقال: خذ على سَنَنِ الطريق وسُنَنِه[2].

قال الأزهري: "السنة: الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة. معناه: من أهل الطريقة المستقيمة"[3].

وتطلق السنة لغة -أيضاً- على الطبيعة والسجية والوجه وعلى الخط الأسود وعلى متن الحمار وعلى تمرٍ بالمدينة معروف[4].

يقول مؤلف حجية السنة -بعد أن ذكر التعريف اللغوي لكلمة السنة-: "هذا ولم أجد في قواميس اللغة تصريحاً: بأن السنة هي العادة، ولا بأن العادة هي الطريقة والسيرة أو الطبيعة"[5].

ثانياً: التعريف الاصطلاحي:

معنى السنة في اصطلاح علماء المسلمين يختلف باختلاف أغراضهم وفنونهم.

فعلماء الأصول يعرفونها بأنها: "ما صدر عن الرسول ﷺ من الأدلة الشرعية، مما ليس

---

(١) انظر لسان العرب، لابن منظور: ٣٩٩/٦، والصحاح، للجوهري، دار العلم للملايين، بيروت: ٢١٣٩/٥.

(٢) انظر تهذيب اللغة، للأزهري، الدار المصرية للتأليف والترجمة: ٣٠١/١٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر لسان العرب: ٣٩٨/٦-٤٠٤.

(٥) حجية السنة، لعبد الغني عبد الخالق، نشر وتوزيع الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط. ١، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م: ص٥٠.

بمتلو ولا هو معجز. ولا داخل في المعجز، ويدخل في ذلك: أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقاريره"[1].

وقيل: "هي كل ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن الكريم، من قول أو فعل أو تقرير، مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي"[2][3].

وعلماء الحديث يعرفونها بأنها: "ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خُلقية أو سيرة بعد البعثة، وقد يدخل بعض ما قبلها.[4][5]. والمقصود ما ثبت عنه ﷺ من ذلك.

فالرأي السائد بينهم ولا سيما المتأخرين منهم: أن الحديث والسنة مترادفان متساويان يوضع أحدهما مكان الآخر[6].

ويظهر الفرق بين تعريفي المحدثين والأصوليين في "الصفة" النبوية فإنها عند المحدثين مندرجة في حد السنة؛ لأنهم ينظرون إلى النبي ﷺ على أنه الأسوة للأمة، فينقل إليها كل ما أثر عنه أثبت حكماً شرعياً أم لا، بخلاف الأصوليين، فإنهم يبحثون عما يثبت الأحكام ويقررها.

وأما في اصطلاح الفقهاء فالسنة:

هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب[7][8].

---

(١) الإحكام، للآمدي: ١/١٦٩.

(٢) السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط. د سنة ١٤٠١هـ ١٩٨١م: ص١٦.

(٣) انظر تعريفها أيضاً في: الحديث والمحدثون، محمد محمد أبو زهو، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م: ص٩-١٠.

(٤) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ط. الرياض، المملكة العربية السعودية: ١٨/٦-١٠.

(٥) انظر تعريفها أيضا في: التمسك بالسنة في العقائد والأحكام، محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة، ط. ١، سنة ١٤١٧هـ: ص٢٦، وانظر: ضرورة الاهتمام بالسنن النبوية، عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم، دار المنار للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط. ١، سنة ١٤١٤هـ: ص٢٢.

(٦) انظر المراجع السابقة.

(٧) انظر: إرشاد الفحول: ص٦٧-٦٨.

(٨) انظر تعريفها أيضاً في: أصول الحديث، علومه ومصطلحه، د. محمد عجاج الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م: ص١٩، وانظر ضرورة الاهتمام بالسنن النبوية: ص٢٤-٣٢.

الفصل الأول

آراء المستشرق "جوزيف شاخت" حول السنة النبوية.

ويتكون من ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : مفهوم السنة لدى المستشرق "جوزيف شاخت".

المبحث الثاني : دعوى المستشرق "شاخت" تطور السنة النبوية ونحوها.

المبحث الثالث: دعوى المستشرق "شاخت" وضع الأسانيد اعتباطاً.

المبحث الأول

مفهوم السنة لدى المستشرق "جوزيف شاخت"

"جوزيف شاخت"

ذكرنا سابقاً أن السنة النبوية تعرضت لهجمات المستشرقين والدارسين الغربيين وغيرهم، الذين كتبوا في الحضارة والدراسات الإسلامية، ولا يختلف مفهوم السنة لدى المستشرق "جوزيف شاخت" عن مفهومه لدى غالبية أولئك، حيث تمالأت أقوال معظمهم وتطابقت على تعريف السنة بتعريفات تدور حول معنى "اتباع العادات والتقاليد والأعراف الجاهلية القديمة وتقديسها"[1]، منطلقين في ذلك من ادعاء شغف العرب وولعهم باحترام وتعظيم عادات وتراث الأقدمين والمحافظة عليها.

فالمستشرق "جوزيف شاخت" -كما بينا في ترجمته- تعرض في كثير من مؤلفاته لدراسة السنة النبوية، وما فتيء في مؤلفاته تلك من ترديد وادعاء عدم أصالة التشريع الإسلامي، بناء على عدم أصالة أصوله التي يقوم عليها -على حدّ زعمه- ومن تلك الأصول بل الأصل الثاني السنة النبوية.

فالمستشرق "شاخت" -وكغالبية المستشرقين- يرى تأثر السنة النبوية بل وصاحبها ﷺ بل والإسلام عموماً بمصادر داخلية وخارجية، ويقصد بالمصادر الداخلية التقاليد والأعراف الجاهلية، وأما الخارجية فهو التأثر بتعاليم اليهودية والنصرانية وغيرها من الأديان والنحل والقوانين المعروفة في تلك الحقبة من التاريخ، حيث يقول -بعد أن بين مفهوم السنة لدى المسلمين- في بيان مفهوم السنة الدقيق من وجهة نظره ما يلي:

"إن النظرية الكلاسيكية للفقه الإسلامي تعرف السنة بأفعال النبي -ﷺ- المثالية، وفي هذا المفهوم يستعمل الشافعي كلمة السنة، وعنده أن "السنة" أو "سنة النبي" كلمتان مترادفتان "لكن معنى السنة -على وجه الدقة- (إنما هو النظائر السابقة Precedent

---

(1) The Origins P. 58.

ومنهج للحياة)[1].

ثم يدعم شاخت رأيه هذا عن السنة بآراء أساتذته من المستشرقين، فيذكر رأي المستشرق "جولتسيهر"[2] فيقول: "ولقد وضح جولتسيهر أنها مصطلح وثني في أصله وإنما تبناه واقتبسه الإسلام"[3].

ويذكر أيضاً رأي المستشرق "مارغليوت"[4]، الذي استنتجه عن مفهوم السنة كمصدر للتشريع الإسلامي في صدر الإسلام، والذي لا يبعد عن رأي "شاخت" حيث يقول: "أن مفهوم السنة يعني "ما كان عرفاً مألوفاً" وانحصر مفهومه في الفترة المتأخرة في أفعال الرسول -ﷺ-"[5].

---

(١) المرجع السابق: ص٥٨.

(٢) جولتسيهر: I. Goldziher,

مستشرق مجري ولد سنة ١٨٥٠م من أسرة يهودية وتخرج باللغات السامية على كبار أساتذتها في بودابست وليبزيج وبرلين وليدن، وعين أستاذاً في جامعة بودابست، ثم انتدبته الحكومة المجرية إلى سوريا، ورحل إلى فلسطين ومصر وأتقن العربية على شيوخ الأزهر، واشتهر بمؤلفاته في تاريخ وعلوم المسلمين وفرقهم وحركاتهم الفكرية حتى عد من أعلام المستشرقين ومن آثاره: "اليهود" و"الإسلام" و"العقيدة والشريعة في الإسلام" و"محاضرات في الإسلام" و"اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين" وبحث في "فقه اللغة العربية"، وقام بنشر كتاب "المعمرين" للسجستاني، و"القدرية والمعتزلة" و"العقائد والشرائع عند المرجئة" و"ديوان الحطيئة" و"الملل والنحل" و"الحديث في الإسلام" وتوفي سنة ١٩٢١م.

(المستشرقون ٢/٤٠-٤٢)، (موسوعة المستشرقين: ص١١٩-١٢٦).

(3) The Origins P. 58.

(٤) مارغليوت: Margoliouth D. S.

مستشرق إنجليزي، ولد في لندن سنة ١٨٥٨م، تخرج باللغات الشرقية من جامعة أكسفورد، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق والمجمع اللغوي البريطاني والجمعية الشرقية الألمانية ومن آثاره: "أصل الشعر العربي" و"أصول الشعر العربي الجاهلي" و"القرآن" و"الحديث" و"الخلافة" وحقق "معجم الأدباء" لياقوت الحموي، وقدم له بالإنجليزية وذيله بفهارس الأعلام والكتب، وترجم "تبليس إبليس" لابن الجوزي، وتوفي سنة ١٩٤٠م. (المستشرقون: ٢/٧٧-٧٩).

(5) See:

- The Origins P. 58.
- Margoliouth, the Early Development of Muhammedanism, PP 69-70.

المرجع الثاني نقلاً عن الأعظمي في دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: ١/٦-٧.

وقد عرف "جولتسيهر" "السنة" أيضاً في كتابه "العقيدة والشريعة في الإسلام"، عرفها بأنها "العادة المقدسة والأمر الأول ... وهي جوهر العادات وتفكير الأمة الإسلامية قديماً"(١).

ويقول: "فهناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال للربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث"(٢).

ولترسيخ دعوى تأثر السنة بغيرها من المصادر الداخلية والخارجية يقول "شاخت": "ولم يكن قصد محمد -ﷺ- خلق نظام يضبط به حياة أتباعه، أو وضع أصول هذا النظام على الأقل، بل ظل القانون العرفي العربي القديم -الذي تضمن كثيرا من العناصر الداخلية من رومية إقليمية وبابلية يمنية- يسير في الإسلام سيره الطبيعي، ودخلت عليه بعض التغيرات لتلائم بينه وبين الظروف الإقليمية للبدو وأهل مكة وهي مدينة تجارية، وأهل المدينة وهي مركز زراعي، وكان هم محمد في التشريع قاصراً على تصحيح بعض المسائل مدفوعاً إلى ذلك باعتبارات دينية. وذلك لأن الأحكام التي تمس الحياة الاجتماعية تقوم أيضاً على أساس ديني، وفي مثل هذه المسائل كانت الحوادث الخارجية هي الدافع إلى معالجة أكثرها"(٣).

ويرى "شاخت" أن ما يسمى بالفقه الإسلامي، ليس هو الفقه الإسلامي المبني على كتاب الله وسنة رسول الله -ﷺ-، لأنه لا يوجد ما يمكن تسميته سنة النبي -ﷺ- بل إن جزءاً غير قليل من الفقه الإسلامي مأخوذ من شرائع اليهود والكنيسة وديانات أخرى، عدا اجتهاد المجتهدين"(٤).

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، جولتسيهر، ترجمة د. محمد يوسف موسى و د. علي حسن عبد القادر، والأستاذ/ عبد العزيز عبد الحق، دار الكتاب الحديثة بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ط. ٢، ص٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص٥١.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، طبعة الشعب: ٣/٤٩٠-٤٩٢ تحت مادة "أصول".

(4) See:Schacht, Foreign Elements in Ancient Islamic law Journal of comparative legislation and An International law vol xxxll (1950) parts iii, Iv, P.P 9-17 j.

نقلاً عن الأعظمي في بحثه "المستشرق "شاخت" والسنة النبوية" في "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية": ١/٧٠.

ولتجلية المعنى أكثر حول مفهوم السنة وماهيتها ومصادرها في فكر هؤلاء القوم، نذكر رأي المستشرق "الفريد غيوم" الذي يبين التأثر الشديد والتطابق الواضح من وجهة نظره، بين ما جاء به محمد -ﷺ- كدين جديد وبين ما كان عليه آباؤه وأجداده من عبادات، وأن ذلك يتضح عند تأدية المسلمين لمناسك الحج، من تقديم كسوة الكعبة وتقبيل الحجر الأسود، والشرب من ماء زمزم وغيره، بل اتهم هذا المستشرق النبي -ﷺ-، بأنه قدم قرباناً للصنم العزى في صباه، ليستدل بذلك على أن محمداً -ﷺ- كان يعبد الأوثان قبل مبعثه، لذا فإنه تأثر بعبادتها بعد مبعثه أيضاً فيقول: "إن عادات الجاهلية قد تركت أثراً بيناً في الإسلام، ويتجلى لنا ذلك بوضوح تام، في طقوس شعيرة الحج... ونرى أن تقديم الأضحية كقرابين للآلهة، كان شيئاً مألوفاً لدى عرب الجاهلية. وبالرغم من أن العرب في جاهليتهم كانوا لا يعيرون تلك الأشياء اهتماماً كبيراً، إلا أن بعضهم كان يمارس تلك العادات كتقليد شاع عندهم.. ومما لا شك فيه أن كثيراً من الأماكن والواحات، التي تعتبر مراكز هامة لأداء فريضة الحج ومناسكه، كانت لها أهميتها الخاصة لتأدية العبادات بها. كان العرب يفدون إلى تلك البقاع من المناطق المجاورة، كما كانت ترحل إليها القبائل المختلفة، باعتبار أن تلك الأماكن مقدسة، بل إن كثيراً من القبائل استقرت بالقرب من الأماكن المقدسة لحمايتها. تلك هي حقيقة مكة قبل أن يبعث فيها محمد -ﷺ-. مكة التي كانت تقصدها مختلف قبائل العرب كل عام، وذلك في شهر يعتبرونه مقدساً لأداء شعيرة الحج... إن التقاليد التي شاعت عن محمد -ﷺ- في صباه تروى أنه ذبح حملا أبيض اللون قدمه قرباناً للعزى، ومع هذا جاء القرآن فأدان عادات الجاهلية وطقوسها، كما أدان تقديس عرب الجاهلية للأحجار والأوثان، ووصفها بأنها غير طاهرة ومن عمل الشيطان، تلك الأشياء حرمها القرآن وأمر المسلمين بأن لا يقربوها، بل حرم على المسلمين أكل الذبائح التي تذبح في مثل تلك الأماكن، لأنه اعتبر أن تلك الذبائح غير طاهرة. والإسلام حرم أيضاً عبادة الأوثان لأن الذين كانوا يعبدون تلك الأصنام ويجعلونها واسطة بينهم وبين الآلهة، كانوا مخطئين في نظر الإسلام. ولكن بالرغم من ذلك أتى المسلمون وأدخلوا معظم هذه الممارسات ضمن شعيرة الحج التي يؤدونها كل عام. ويجب علينا أن نلاحظ هنا أن عمر بن الخطاب قال يوما للحجر

الأسود: إنك الحجر الذي يقبلك الحجاج، ولولا أني رأيت رسول اللّه -ﷺ- يقبلك لما قبلتك. ولعله من الملاحظ أن بعض الأشجار قد غدت مقدسة في بعض البيئات، لأن الناس اعتقدوا بأن الآلهة تسكنها، وأن عادة وضع قطعة من القماش على جذع شجرة، أو تعليق أشياء خاصة بالناس للتبرك بجذوع الأشجار وفروعها، كانت طقوسا شائعه في الشرق الأوسط، ونستطيع أن نرى نفس الشيء في تقديس بعض الناس للآبار وعيون المياه، كل هذه الأشياء مناقضة لفكرة توحيد الإله، لكن المسيحية واليهودية لم تستطيعا التخلص من تلك الطقوس والشعائر، فلا غرابة إذا لم يستطع الإسلام التخلص منها كذلك)[1] [!!!].

تلكم هي مفاهيم "شاخت" ومن وافقه من المستشرقين الآخرين للسنة النبوية، ظنوا أنها من باب العادات والتقاليد الموروثة من الجاهلية، واستشهدوا على ما ذهبوا إليه ببعض العادات التي أبقاها الإسلام من العادات القديمة، فأصبحت السنة في مفهومهم عبارة عن المحافظة على تلك العادات والأعراف والتقاليد الجاهلية، مع تطعيمها أو مزجها أحياناً ببعض الأحكام الشرعية الطفيفة، وأن هذا المعنى يشمل أيضاً المحافظة على ما صدر عن الخلفاء والصحابة والتابعين وتابعيهم، وإذاً فلفظ السنة في نظرهم يعني خليطاً من الأعراف الجاهلية السابقة، مع الأحكام التي أتى بها محمد ﷺ، مع تصرفات واجتهادات الخليفتين من بعده بخاصة، وتصرفات بقية الصحابة والتابعين بعامة، ويربط هذا المزيج كله الاقتداء بالسابقين، ويريد المستشرقون -و"شاخت" خاصة- أن يقولوا: إن أقوال النبي -ﷺ- وأفعاله وتقريراته ليست متميزة في ذلك العهد عن الأعراف الجاهلية، ولا أقوال الصحابة وتصرفاتهم من بعده، وإذاً فهي في العهود التالية أقل تميزاً وأشد غموضاً، وأن ما يُروى من السنن منسوباً إلى النبي -ﷺ- فهي من وضع الوضاعين واختراعات الفقهاء.

المناقشة:

بعد عرض أقوال "شاخت" وبعض المستشرقين الآخرين حول مفهومهم للسنة النبوية نرى أنها تتلخص فيما يلي:

---

(1) See: Alfred Guillume, Islam, Penguin Book Made and Printed Ltd. Great Britain, Hunt Bernard Printing Ltd Aulesbury Set in Monotyc Bembo, 1976 P.P 6-7.

١- يرى المستشرقون أن السنة عبارة عن المحافظة على تقاليد وأعراف الجاهلية.

٢- يرى المستشرقون أن السنة استقت أغلب معلوماتها من اليهودية والنصرانية وبعض النحل والقوانين الأخرى.

٣- يرى "شاخت" وغيره أيضاً أن أقوال النبي -ﷺ- وأفعاله وتقريراته ليست متميزة في ذلك العهد، عن الأعراف الجاهلية ولا تصرفات الخلفاء والصحابة والتابعين وتابعيهم من بعده، وبخاصة تصرفات العمرين وإذاً فهي في العهود التالية -على حدّ زعمه- أقل تميزاً وأشد غموضاً.

٤- ويشبه "شاخت" اهتمام المسلمين بتطبيق سنة نبيهم، بأنه من باب اهتمام العرب بتقاليد وأعراف السابقين ومحاولة السير على خطاهم، فالجامع بينهما هو مجرد الاتباع والتقليد والطاعة.

وبعد ذكر أهم النقاط التي أدّعاها المستشرق "شاخت" وغيره حول مفهومهم للسنة، أحاول مناقشته ذلك فيما يلي:

أما قول "شاخت": أن السنة عبارة عن المحافظة على تقاليد وأعراف الجاهلية بدعوى وجود تشابه بين كثير من تعاليم الإسلام وتشريعاته، وبين بعض الأعراف والتنظيمات الجاهلية.

قد بينا في التمهيد تعريف السنة في اللغة واصطلاح الفقهاء والمحدثين والأصوليين، و لم نجد من عَرَّف السنة منهم بأنها الاهتمام بتقاليد وأعراف الجاهلية، أو السير على خطاهم أو التشبة بهم وتقليدهم في المحافظة على أعراف وتقاليد سابقيهم، ومعروف أنه في كل علم وفن يؤخذ تعريف ذلك العلم والفن عن أهله المتخصصين فيه، الأدري بجزئيات العارفين بخصوصياته ومكوناته، والسنة أحد مصادر التشريع في الإسلام، فالمسلمون هم أهله، وعلماؤهم هم المتخصصون فيه، "فالإسلام يجب أن يؤخذ عن أهله، والمستشرق ليس من المسلمين فضلاً عن أن يكون من المتخصصين ليصح الاعتداد بقوله أو الاعتماد عليه في هذا الباب"[1].

---

(١) "المشترقون والسنة"، للدكتور عبد الله الرحيلي ، بحث غير منشور: ص٦٤.

يقول الدكتور عبد الله الرحيلي: "الأصل أن نتطلع لكلام المتخصص في تخصصه، وأن يؤخذ كل علم عن المتخصص فيه، وإن كان الحق ليس وقفاً على المتخصص، كما أن التخصص ليس دليلاً على إصابة المجتهد في علم ما في قوله في مسألة، ولكن هناك مسائل يكون التخصص مشروطاً فيها... ومسألة التخصص هذه دائرة خاصة ينظر لها بعد توافر شرط الإسلام"(١).

أما قضية وجود التشابه بين كثير من تعاليم الإسلام وتشريعاته وبين بعض القوانين الجاهلية فنقول: لقد بعث الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً للناس كافة بين يدي الساعة، وقد جاء الشرع الإسلامي فوجد في الأمة التي انطلق منها الصيحة الأولى للدعوة الإسلامية وهي الأمة العربية، وجد فيها أعراف وعادات ونظم سابقة عليه، شأن كل مجتمع إنساني، فما الموقف الذي يمكن أن يقفه الإسلام تجاه تلك الأعراف؟

إن الموقف لا يخرج عن ثلاثة احتمالات لا رابع لها في العقل، هي:

الاحتمال الأول:

أن يقر الإسلام كل هذه الأعراف جملة وتفصيلاً.

الاحتمال الثاني:

أن يرفض الإسلام كل هذه الأعراف جملة وتفصيلاً أيضاً بدون استثناء.

الاحتمال الثالث:

أن يقر الإسلام بعض هذه الأعراف ويمحو بعضها الآخر. هذه الاحتمالات العقلية في المسألة، فما موقف الإسلام في الواقع؟

أما الموقف الأول:

وهو موقف الإقرار الكلي العام، فلم يقفه الإسلام، بدليل أنه أتى بأحكام تصادم هذه الأعراف وتحاربها في مجالات كثيرة، منها على سبيل المثال: تحريم الربا والزنا وأكل الميتة

---

(١) المصدر السابق: ص٦٤.

ووأد البنات وغيرها، ثم إن هذا الموقف لا يمكن أن يقفه أي دين أو مذهب إصلاحي لأن معناه أن وجوده كعدمه.

وأما الموقف الثاني:

وهو موقف الرفض العام الذي لا استثناء فيه، فهو أيضاً لم يقفه الإسلام، لأن موقف تعصبي عشوائي، معناه أنه ليس في ذلك المجتمع أي خير وأي صواب، وإذا لاحظنا أنه كانت في هذا المجتمع بعض النظم التي أجمعت عليها البشرية في أزمنتها وأمكنتها، مثل أصل الزواج وتكوين الأسرة وأصل البيع وأصل الإجارة، فإن رفض ذلك يعني رفض كل ما تواترت عليه البشرية في كل جزئية، وهذا موقف ظاهر أنه متطوح في الخيال ومناقض لمصلحة البشرية، ويؤدي إلى دمارها كما شاهدنا ذلك في بعض المذاهب الفلسفية الفارسية التي منعت الزواج واختاص المرأة بالرجل وجعلت النساء شيوعاً في المجتمع، فحاق بذلك الدمار في ذلك العهد في المجتمع الفارسي.

وكما شاهدنا ذلك حديثاً في النظم الشيوعية والمذاهب الماركسية، التي أنكرت حق الملكية فلم يتحقق ذلك، ولم تستطع تحقيقه دولهم رغم إحكام قبضتها على شعوبها، ثم أنهارت تلك النظم بعد أن عاش حكامها عيشة أشد ترفا من حكام الدول الرأسمالية، وفي هذا قمة المناقضة لأساس المذهب الذي يدعون إليه، ومثلهم في ذلك كمثل رجل يدعو إلى التوحيد بلسانه وهو مشرك بعمله وتصرفه، وهذه هي نهاية كل نظام يناقض الفطرة البشرية[1].

وأما الموقف الثالث:

وهو موقف إقرار بعض الأعراف ونفي بعضها، وهو الموقف الذي وقفه الإسلام وهو ما سنوضحه فيما يلي:

---

(١) فكرة هذه الاحتمالات الثلاثة، ومناقشتها، مستفادة من محاضرات الدكتور الشيخ محمد هاشم على طلاب السنة الثانية بقسم الاستشراق لعام ١٤١٦هـ بتصرف.

وانظر: المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، درسها وحققها وشرحها يوسف بن محمد السعيد دار المواید للنشر والتوزيع الرياض، ط. ١ سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م: ١/٥٤-٨٠.

من المعلوم أن مصادر الفقه الجاهلي ترجع إلى العرف والتعاليم الدينية وأحكام ذوي الرأي والمكانة، فقد كان للعرب في الجاهلية مصادر عدة لتشريع قوانين عباداتهم وتنظيم شئون حياتهم ومعاشهم، ومن تلك المصادر: العرف، وهو ما تعارف عليه الجاهليون من تصرفات اتفقوا عليها، وتلقوها بالرضا والقبول وأصبح لزاماً عليهم اتباعها والتقيد بأحكامها، وبواسطة هذا المصدر نظموا العديد من مسائلهم التشريعية، التي لا يزال يطبق بعضها في بعض القبائل في مسائل ، مثل فض المنازعات التي تقع بين أفراد القبيلة، بل إن بعض مصطلحات العرف الجاهلية السليمة مازالت باقية إلى الآن، في العديد من الأصقاع العربية، وهي أعراف صالحة أبقى عليها الإسلام ضمن ما أبقى من أعراف صالحة، بعد أن ألغى الفاسدة منها، ثم إن من مصادرهم: التعاليم الدينية التي يدينون بها من شريعة التعبد للأوثان والتقرب للأصنام، فقد وضع سدنة المعابد والكهان أحكاماً لأتباعهم على أنها أحكام ملزمة، يكون مخالفها في حكم المخالف للعرف، وتعتبر آراء أولي الأمر وأحكام ذوي الرأي والمكانة أحد مصادر تنظيم حياة العرب في الجاهلية، تلك الأوامر والتعليمات، الصادرة من ملوك وسادات ورؤساء القبائل والعشائر، الذين يحملون صفتي التشريع والتنفيذ في أمور المعاملات التجارية ونحوها، وأحكام ذوي الرأي والمكانة فلها المكانة اللائقة في تنظيم أمور الجاهليين تبعاً لسداد آرائهم ومقدرتهم على استنباط الأحكام وفض المنازعات والخلافات، ولو أردنا عقد مقارنة للأحكام التي قررتها هذه المصادر مع الأحكام الإسلامية، لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف لطال بنا المقام، ولكن نكتفي ببعض مسائل العبادات والمعاملات التي أشار إليها المستشرق "شاخت" ورفاقه عند حديثهم عن التأثر، لنرى مدى صحة كلامهم، فمثلاً في شعيرة الحج نجد أن الجاهليين كان معروفاً عندهم الطواف بالبيت سبعة أشواط، وأنه أحد أركان الحج ومنسك من مناسكه، لكن بعضهم كان يطوف بالبيت وهو عارٍ حتى قالت إحداهن:

اليوم يبدو بعضه أو كله وبعد هذا اليوم لا أحله[1]

---

(١) انظر البداية والنهاية، ابن كثير، دقق أصوله وحققه د. أحمد أبو ملحم وجماعة دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان، ط. ٥ سنة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م: ٢/٢٨٣.

وكان العرب في الجاهلية يلبون إبّان حجهم، وكان بعضهم يوجه التلبية للأصنام والأوثان، وكانوا يطوفون بين الصفا والمروة -اللتين نُصِبَا عليها صنمان، هما: إساف ونائلة- سبعة أشواط، وأما في مجال المعاملات: فنجد أن الجاهلين كانوا يحرمون زواج الأب من ابنته، وكذا الأم من ابنها، والجدة من حفيدها، والأخ من أخته، مراعاة لعلاقة الأصل بالفرع، لكنهم بالمقابل كانوا يجمعون بين الأختين، وكان الصداق معروفاً عندهم أنه دليل على شرعية الزواج، إلا أن ولي المرأة عادة ما كان يستولي عليه دون إعطائه لها، وكان لديهم أنواع من الزواج كنكاح المقت والمتعة والبدل والشغار والاستبضاع، وكان الطلاق معروفاً عندهم بأنه ثلاث طلقات، لكن كانوا يتحايلون على ذلك لإرجاع الزوجة إلى مطلقها، بأن يزوجوها من آخر ثم يطلقها لتعود إلى الأول، وعندما جاء الإسلام جاء بمبدأ المصلحة لا المخالفة، فأبقى على ما صلح وأنكر ما هو فاسد، فاستبقى الطواف وألغى طواف العري وحتم لبس الإحرام، واستبقى التلبية وحرم أنواعها الموجهة للأصنام واستبقى ما كان لله وحده، وأبقى السعي بين الصفاء والمروة وحطم إسافاً ونائلة، واستبقى الصداق وجعله حقاً للمرأة، واستبقى النكاح بولي وصداق وشهود، وحرم ما سواه من أنكحةٍ، واستبقى الطلاق وحدّده بعد أن كان مُطْلقاً وحرم المحلل بعد ثلاث[1].

لقد أقرّ الإسلام بعض ما كانت عليه الجاهلية من خير؛ وذلك لكونه حقاً مطابقاً لما جاءت به رسالة الإسلام، لأنه تلك الأمور إما بقايا من فطرة سليمة أو بقيّة من دينٍ إلهيٍ سابق.

ونتقل إلى دعوى التأثر بالمصادر الخارجية فنقول: طالما طنطن المستشرقون حول هذا الموضوع، مدعين استقاء النبي -ﷺ- لمعلوماته من مصادر يهودية أو نصرانية، سواء ما كان منها في داخل الجزيرة أو خارجها، محتجين بالتشابه بين بعض ما جاء في تلك المصادر وبعض ما جاء في الإسلام. ولمناقشة هذا الرأي نقول:

---

(١) انظر في موضوع مصادر التشريع والأحكام الجاهلية، والمقارنة بينها وبين تشريعات الإسلام: "الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية" د. ساسي سالم الحاج، مركز دراسات العالم الإسلامي مالطا ط.١، ١٩٩١م: ٣٢٣/١-٣٢٦.

إن المستشرق "شاخت" ومن أخذ بمذهبه لا يستطيعون إيجاد الأدلة القاطعة على إيرادهم لهذه الشبهة المتهافته، بل يستندون لبعض الروايات التاريخية التي تذكر وجود بعض النصارى[1] الذين كانوا يعملون بمكة.

يقول المستشرق "فريلاند أبوت"[2]: "ولقد بذل الكتّاب والباحثون كثيراً من الجهود، من أجل اكتشاف الجذور الحقيقة للدعوة المحمدية، والأسباب التي حدت بمحمد -ﷺ- ادعاء النبوة، وبالرغم من هذا فإن النتائج غير مطمئنة. ولقد قال أناس إن محمداً -ﷺ- كان يتلقى التعليم على يدي أستاذ يهودي وهذا ربما كان صحيحاً، ولقد ادعي بعضهم أن محمدا -ﷺ- قد تلقى العلم على يدي راهب نصراني من سوريا وهذا أيضاً ربما يكون صحيحا، ولقد ادعى آخرون أن المجتمع التجاري الذي كان يعيش فيه محمد -ﷺ- ربما ساعده على مقابلة كثير من أصحاب الديانات الأخرى، وأنه قد استقى من هؤلاء التجار بعضا من أصول دينهم وعقائدهم، فبنى عليها وجعلها أصلا لدعوته، وهذا أيضاً ربما يكون صحيحاً، ولكن الصحيح في آخر الأمر أن محمدا -ﷺ- لم يدع أبداً بأنه جاء بدين جديد أو دين أصيل، ولقد كرر المرة تلو الأخرى أن ما جاء به هو عبارة عن تجديد لما سبقه من رسالات، ومن الغريب في الأمر أن إرجاع معظم المبادئ الإسلامية لأصول الديانات السابقة من يهودية أو نصرانية أو غيرهما، لا ينال مطلقاً من عقيدة المسلمين ولا يؤثر فيهم، وذلك ربما لأن المسلمين عادة لا يلجأون إلى نقد وتمحيص عقائدهم وشرائعهم كما يفعل المستنيرون من النصارى، وهذا ربما يرجع إلى اعتقادهم التام بأن القرآن ما هو إلا كلام اللّه فلا داعي لانتقاده"[3].

---

(١) على أن هذه مسألة تحتاج إلى تحقيق في ثبوت ذلك وفي عددهم وفي مكانتهم الاجتماعية.

(٢) لم أجد من ترجم له.

(3) Freeland Abote, Islam and Pakistan Cornell University Press, New York, 1968, P.P. 14-15.

ويقول المستشرق "موير"[1]:

"لقد حاول محمد -ﷺ- الاستفادة بقدر جهده من الرقيق النصارى، الذين كانوا يحيطون به في مكة، ومن نسخ الأناجيل المتفرقة التي كانت متناثرة بأيدي النصارى من حوله، ولقد استقى كثيرا من المعلومات من أحد علماء النصارى وكان يدعى "ورقة بن نوفل" ... ولم نجد أن محمداً -ﷺ- أدخل شيئا من طقوس النصارى وعباداتهم في الإسلام رغم أنه أدخل الكثير من شعائر اليهود، هذا بالرغم من أن الإسلام لم يتأثر بمبادئ المسيحية وطقوسها، إلا أن المسيحية تحتل مكانة عظيمة وسامية لدى المسلمين، بل إن مكانتها لدى محمد كانت أكبر من مكانة اليهودية"[2].

ويقول المستشرق "بيل"[3]: "وكما كانت المسيحية هي العامل المساعد على تحقيق أمجاد الإمبراطورية الرومانية، لا نستطيع أن نغفل الحقيقة الأخرى الثابتة، وهي أن المسيحية كانت من العوامل التي ساعدت المحمديين لتقوية شوكتهم أيضاً، كما يجب أن لا نغفل عن الحقيقة

---

(١) وليام موير WILLIAM MUIR:

مستشرق ومنصر وموظف إداري إنجليزي، ولد في جلاسجو ١٨١٩م، واشتغل في الإدارة المدنية لشركة الهند الشرقية وأمضى فترة طويلة في الهند في مناصب إدارية رفيعة، وتعلم اللغة العربية وعني بالتاريخ الإسلامي وكان شديد التعصب للمسيحية، ويتضح ذلك من نشاطه التنصيري ومن مؤلفاته العديدة التي هاجم فيها الإسلام، ومن مؤلفاته: "شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية" وقد حاول أن يبين فيه أن على المسلمين الإقرار -بشهادة القرآن نفسه- بصحة التوراة والإنجيل (الكتاب المقدس) كما هما في نصهما الحالي، ومن مؤلفاته أيضاً: "حياة محمد وتاريخ الإسلام"، و"حوليات الخلافة" و"المماليك"، أو "دولة العبيد في مصر (من ١٢٦٠-١٥٥٧)" و"القرآن، تأليفه وتعليمه" و"الجدال مع الإسلام" وتوفي في أدنبره بأسكتلنده سنة ١٩٠٥م. (موسوعة المستشرقين: ص٤٠٤-٤٠٥).

(2) Sir William Muir, The Life of Mohammad from Original sources, K. G. SL., A New and Revised Edition by T. H. Weir, Edinburgh, Johm Grant, 1912 P.P 148-149.

(٣) ريتشارد بيل Bell, R.

مستشرق وراهب إنجليزي، وأستاذ اللغة العربية بجامعة إدنبره، تخصص في دراسة القرآن وتاريخه، وتأكيد علاقة النبي -ﷺ- بالمسيحية ومن مباحثه: "الحديث عند المسلمين" و"أسلوب القرآن" و"المتشابه في القرآن" و"رؤى محمد" و"معلومات محمد عن العهد القديم" وقام بترجمة القرآن بغرض تحليل السور المتفرقة بوضع قوانين النقد الأدبي لها. (المستشرقون: ٢/٩٣-٩٤).

المؤكدة، بأن السبب الرئيسي لانتشار دعوة محمد -ﷺ- هو تعصب العرب لقوميتهم، إذ أننا نجد أن من أوائل الذين اعتنقوا دعوة محمد -ﷺ- هم أعراب مكة والمدينة، وأن من أوائل الذين ساندوه هم النصارى العرب الذين سكنوا بالجزيرة العربية، لذا نحن نرى أنهم قد وقفوا بجانب الدعوة الجديدة لأسباب قومية وعنصرية، إذ أعجبهم أن يكون هناك رسول عربي مستقل عن بقية الرسل، الذين كانوا ينحدرون من سلالات غير عربية.

ومما لا شك فيه أن النصارى العرب الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام، كان لهم دور كبير في بناء هذا الدين، وهم الذين وضحوا لمحمد -ﷺ- ماهية الأديان، وأعطوه فكرة ثابتة عن حقيقة الأديان، لأن دعوة محمد -ﷺ- لم تكن دينية بقدر ما كانت دعوة سياسية محضة، ولم تأت الفكرة التي تنادى بأن الإسلام ديـن ودولة إلا بعد أن رأى محمد -ﷺ- تلك الحقيقة في الديانة المسيحية، بجانب ما تجمع لديه من معلومات عن أسفار العهد القديم)[1] [!!!].

وقد رَدَّدَ هذه الشبهة من قبلهم كفار قريش، عندما زعموا أن النبي -ﷺ- تأثر بهؤلاء القوم، وهم الذين أعانوه فيما جاء به عندما كان يتردد عليهم، فقال اللّه عزوجل: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيه أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾[2]، كما ردّ القرآن على دعوى تأثير جماعة بعينها في فكر النبي -ﷺ- فقال جل شأنه حاكياً لحال قريش ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوَا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جآءُو ظُلْمًا وزُورًا**﴾[3].

ثم إن الذين ادعوا تأثيرهم في النبي ﷺ كانوا جهلة بدينهم الأصلي، والمعارف التي توجد لديهم ناقصة، والفرق بينها وبين ما جاء به النبي ﷺ من معارف جمة فرق كبير جداً، ثم إن هؤلاء الأشخاص غير موثوق فيهم ومختلف في أسمائهم، ولم يثبت أن النبي -ﷺ- قد ذهب

---

(1) Richard Bell, The Origin of Islam in its Christain Environment , Franc Cass and Co. L. T. D. 1968, P. P. 2-5.

(٢) النحل: ١٠٣.

(٣) الفرقان: ٤.

مرة واحدة إليهم، خاصة إذا أدركنا تدني حالتهم الاجتماعية والعملية، مما لم يكن يليق برسول اللّه -ﷺ- أن يذهب إليهم لا قبل النبوة ولا بعدها.

هذا، على أن قواطع أدلة الوحي الإلهيّ عندنا الثابت بالتواتر والقطع، يغنينا عن كل بحثٍ ودليل في هذه القضية.

وأما دعوى التأثر ببحيرى الراهب فنقول: إن الروايات التاريخية تثبت أن النبي ﷺ لم يجلس إلى بحيرى، ولم يلتق به غير المرة التي سافر فيها مع عمه للتجارة إلى الشام، وكان سِنّه عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت لا تؤهله للتحمل، وكان طوال الجلسة مسئولاً لا سائلاً، وهو لم يذهب إليه طواعيةً واختياراً أو قصداً، بل استدعي إلى ذلك، ولم يكرر الذهاب إلى الشام إلا مرة واحدة وسنة خمس وعشرون سنة، ولم يرد أي خبر عن لقائه في المرة الثانية ببحيرى، ولو أنه التقاه لتحدث الرواة كما تحدثوا أول مرة، ثم إن الأسئلة التي دارت في المرة الأولى لم تتناول مسائل عقدية، أو تشريعية أو شيئاً من الوصايا أو القصص، وإنما انحصرت في تفرّس بحيرى فيه وتوجيه أسئلة إليه[1].

وأما دعوى التأثر بواحد مثل ورقة بن نوفل فنقول: لو كان النبي ﷺ يتردد على ورقة لأخذ علم أهل الكتاب منه، لما احتاج للذهاب مع خديجة إليه بعد حادثة نزول الوحي عليه، ثم إن ذهابه إلى ورقة ليخبره بأمر جديد قد أخذه منه حسب زعم المستشرقين، أمر يجعل النبي يتردد في ذلك، إذ كيف يذهب إلى أستاذه ليخبره بأمر يدعيه جديداً وقد أخذه منه، وعلى فرض أنه كان يتردد على ورقة في السابق، ثم ذهب وأعلن نبأ الأمر الجديد لورقة، فماذا يكون حال ورقة وقد استمع إلى أمر يراه مأخذوناً منه، إننا أمام عدة احتمالات: إما أن يعلن ورقة أنه شيء مستفاد منه ومن علمه، أو يسكت لا يرد، أو ينهر النبي ﷺ، أو يبين أن هذا ليس وحياً وإنما هو تخيل، أو يشيع ذلك لقريش، وكل ذلك لم يحدث، بل الذي حدث

---

(١) من محاضرات الدكتور عبد اللّه الشاذلي على طلاب السنة الثانية بقسم الاستشراق عام ١٤١٦هـ في مادة "المستشرقون والقرآن"، وانظر البداية والنهاية، لابن كثير: ٢/٢٦٣-٢٦٦، ٢/٢٧٢-٢٧٣، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد بن محمد أبو شهبه، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط. ٢ سنة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م: ص٢١١-٢١٢.

هو إقراره بأن هذا وحي وأنه يشبه وحي الأنبياء من قبله إلى آخر ما جاء في الرواية[1]، فيبطل زعم المستشرقين استفادة النبي ﷺ من ابن عم زوجه خديجة في الاطلاع على علم أهل الكتاب.

وأما إن كان القول بتأثير اليهودية والنصرانية على فكر الرسول ﷺ، لمجرد التشابه بين بعض الأحكام والتشريعات في كلٍ وكون اليهودية والنصرانية سابقتان على الإسلام، فنقول: ما بال "شاخت" ورفاقه يتجاهلون التشابه بين عموم الأديان الأخرى، خاصة اليهودية والنصرانية، دون أن يقولوا إن اللاحق أخذ عن السابق، فلم يدّع أحدٌ منهم أن عيسى عليه السلام الذي وُلد في بيئة يهودية، من أم يهودية مثقفة وعابدة، ومِنْ حوله كل أقربائه على درجة عالية من العلم باليهودية، بل وكانوا أنبياء مثل زكريا ويحيى عليهما السلام، وكان الجو يعج بكتب وتراث اليهودية وعيسى عليه السلام يقرأ، ومع ذلك لم يطبقوا حال التشابه، بل لم يطبقوا حال عيسى عليه السلام وقد أعلن أنه ما جاء إلا ليؤكد التوراة وما فيها، والنصرانية معتمدة في تشريعاتها على اليهودية، ومع كل هذا لم يقولوا إن عيسى عليه السلام صاغ ما قاله من تلقاء نفسه متأثراً باليهودية، بل تجاوزوا حد النبوة إلى التاليه، ولكنهم -أي المستشرقون- لشيء في نفوسهم طبقوا حالة التشابه النادرة على الإسلام، وطعنوا في مصادره التشريعية.

وعموماً فلا يضير الإسلام وجود تشابه وتطابق فيه مع الرسالات السابقة، لأن رسل اللّه جميعاً ما جاؤا إلا بدعوة التوحيد والإسلام، ومرسلهم واحد هو اللّه رب العالمين، فأصل رسالتهم واحد في الدعوة إلى الهدى والتوحيد يقول تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ**﴾[2].

---

(١) انظر تفصيل هذه الرواية في كتب التاريخ والسيرة النبوية مثل تاريخ الأمم والملوك للطبري: ١/٥٣١-٥٣٤، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، والبداية والنهاية: ٢/٢٧٥-٢٧٦، والسيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة: ١/٢٦١-٢٦٤.

(٢) الأعلى: ١٨،١٩.

يقول الدكتور الرحيلي تحت عنوان "مسلك للرد على ادعاء أخذ الإسلام من مصادر أجنبية عنه"، قوله تعالى: ﴿إِن هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ * صُحُفِ إِبرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[1] هذا نص في موضوع الموافقة والتطابق بين رسالات اللّه كلها من أولها إلى آخرها في الأصول، وفي الاتفاق على الدعوة إلى الهداية ورضوان اللّه عزوجل، ... وهذا النص الإلهي الكريم يقطع على المتقولين شبهتهم وتخرصهم أو تقولهم، لأنه كلام من أرسل الرسل، وهو يقول سبحانه بأن هذا الذي جاء في القرآن -آخر كتب اللّه إلى خلقه- هو كذلك في الصحف الأولى التي بعث اللّه بها أنبياءه السابقين بل الأوّل! فماذا عسى أصحاب تلك الدعاوى والظنون أن يقول بعد هذا"[2].

ويقول في موضع آخر: "ينبغي أن يلاحظ التفريق بين ثبوت المقارنة من حيث هي، وبين صحة النتيجة التي بناها المستشرق على تلك المقارنة، ولا تلازم دائماً بين ثبوت الاتفاق بين شيئين أو بين مذهبين أو بين شخصين أو دينين، وبين أن يكون أحدهما قد أخذ عن الآخر، تعلم هذه الحقيقة بالنظر إلى طبائع الأشياء وطبائع الأديان والمذاهب وطبائع البشر، إذ أن الأغلب بصفة عامة هو الاتفاق بين مخلوقات اللّه المتجانسة وفق عوامل الاتفاق، وكذلك الافتراق بينها وفق عوامل الافتراق، فلكل من هذه العوامل أثره، ومعنى ذلك أن نتائج الاتفاق هذه ونتائج الاختلاف هذه التي قد يوصل إليها البحث أو النظر للواقع، نتائج في الغالب طبيعة منطقية، دون أن تكون مفتقرة دائماً إلى النقل والاقتباس... وفي مجال الدين مثلاً نجد بالبحث توافقاً فيها بين الأديان الإلهية على اختلافها، قليلاً أو كثيراً دون أن يكون أحدها، قد أخذ من الآخر، وإنما لأن ذلك عنوان شاهد بما بقي من الحق لدى هذه الأديان، يشهد بأنها من عند اللّه دون أن ينقل بعضها عن بعض، لأن المرسل لها واحد هو اللّه سبحانه وتعالى... إن هذا الاستدلال المتعسف بالمقارنة استدلال مضحك، ومسلك من مسالك المستشرقين يعد عيبا في منهجهم، وإنه ليكشف مدى الموضوعية في هذا المنهج الاستشراقي، ويظهر كيف يسير المستشرق وراء خيالاته، وأمنياته، التي يريد أن يثبتها بأي

---

(١) الأعلى: ١٨،١٩.

(٢) المستشرقون والسنّة ص٨٩.

أسلوب وأي استدلال"[1].

يقول الشيخ مصطفى صبري:

"وكم يكون مضحكا ما يدعيه بعض الغربيين، أن الكنوز التي حفظها أئمة القرآن والحديث، مما أوتي محمد ﷺ الأمي من الحكمة، وفتحها وشرحها أئمة الفقه المجتهدين، إنما هي تفصيل ما تعلمه من الراهب المسيحي بحيري في دقائق معدودة، في مقابلة في طريق سفره إلى الشام، وهو مراهق في الثانية عشرة من عمره!! ولماذا لم ينفق ذلك الراهب من خزائن علومه التي فتحها علماء الإسلام في دينه المسيحي"[2].

وأما ادعاء "شاخت" وغيره عدم تميّز أقوال النبي وأفعاله وتقريراته في ذلك العهد، عن تصرفات غيره من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وبخاصة تصرفات الخليفتين من بعده، فنقول: نرى أن المستشرق "شاخت" تظهر عليه خصيصة من خصائص المستشرقين، وهو أنه إذا وجد حقيقة مناقضة لرأيه أخذ يُعمل فكره، ويتكلف الآراء ويحاول بكل جهده أن يحوّر تلك الحقيقة أو ينقضها، متعللاً بدقة البحث وتمحيص الأخبار ووزن الآراء فيما يزعم، وإذا وجد شبهة أو خبراً ضعيفاً موافقا لأهوائه سارع إلى تأكيده بكل قوة، وإلى الجزم به دون دليل، ونسي هذا المستشرق وأمثاله ما يدعونه لأنفسهم من دقة البحث وتمحيص الأخبار، فهنا في هذه النقطة نجد أن المستشرق "شاخت"يتجاهل الآيات القرآنية الكثيرة التي تميز سنّة رسول الله ﷺ عن غيرها، وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾[3]، ومن مثل قوله سبحانه: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾[4]، ومن مثل قوله عز وجل: ﴿**وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[5]، فهذه

---

(١) "المستشرقون والسنّة" د. عبد الله الرحيلي: ص٨٤-٨٦.

(٢) "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين": ١/١٥٥، الحاشية نقلاً عن الدكتور الرحيلي في المرجع السابق.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) آل عمران: ٣١.

(٥) الحشر: ٧.

الآيات توجب بكل وضوح طاعة النبي ﷺ سواء في قوله أو فعله أو تقرير، ولا تخلط بذلك شيئاً الإطاعة اللّه عز وجل، التي تعد طاعة النبي ﷺ جزءاً منها وذلك كما قال تبارك وتعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1]، ثم إن لفظة سنة النبي ﷺ، أي لفظ "السنة" مضافاً إلى النبي ﷺ دون غيره من الناس، قد ورد في أحاديث كثيرة صحيحة؛ إذاً فهي معروفة في حياة النبي ﷺ، وقبل عهد الخلفاء الراشدين ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

١- (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب اللّه وسنّتي)[2].

٢- (النكاح سنّتي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي)[3].

٣- وحديث معاذ بن جبل حينما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن (فقال: بم تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: بكتاب ا لله، قال: فإن لم تجد، قال: فبسنّة رسول اللّه، قال: فإن لم تجد، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول اللّه ﷺ في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسولِ اللّه إلى ما يرضي اللّه ورسوله)[4].

وقد ثبت بالأخبار الصحيحة استعمال لفظ سنة النبي ﷺ في عهد الخلفاء الراشدين فمن ذلك:

١- ما يرويه ابن شهاب الزهري عن قبيصة بن ذؤيب قال: (جاءت جدة إلى أبي بكر تسأل ميراثها، فقال لها أبو بكر: ما أجد لك في كتاب اللّه شيئاً، وما علمت في

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) رواه مالك في الموطأ بلاغا: ٨٩٩/٢ برقم ٣، ورواه ابن عبد البر في التمهيد: ٣٣١/٢٤ موصولاً من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه من حديث عائشة، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح: ٥١٢/١ برقم ٨٤٦ واللفظ له، والبخاري من حديث أنس وفيه قصة الثلاثة الذين سألوا عن عبادته ولفظه (...وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني): ٥/٩ برقم ٥٠٦٣ من كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ومسلم برقم ١٤٠١ من كتاب النكاح، والنسائي برقم ٣١٦٥ من كتاب النكاح، والدارمي برقم ٢١٦٩ من كتاب النكاح، وأحمد في مسنده برقم ٦٤٤١.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأحكام، باب ماجاء في القاضي كيف يقضي: ٦١٦/٣ برقم ١٣٢٧، قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء: ١٨/٤ برقم ٣٥٩٢، وأحمد في مسنده: ٢٣٦/٥، ٢٤٢.

سنة رسول اللّه ﷺ شيئاً، فارجعي حتى أسأل، فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول اللّه ﷺ أنه أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك أحد؟ فقام محمد بن سلمة، وشهد على ذلك، وقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة، فأنفذه أبو بكر، وورث الجدة السدس)[1].

٢- وما جاء في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، ورسم له فيها دستور القضاء وقال له: إن عرض لك قضاء فاقض بما في كتاب اللّه، فإن لم تجد فبما في سنّة رسول اللّه ﷺ[2].

وأما قول "شاخت" أن معنى السنّة هو: اتباع ما درج عليه السلف، أو ما سبق لأبي بكر وعمر: فقد غفل ذلك المستشرق، عن أن اتباع السلف ليس هو إلا الاقتداء بمنهجهم في اتباع الكتاب والسنة، وإذاً فالمرجع إلى كتاب اللّه وسنّة نبيه ﷺ، وليس قول السلف مصدراً من مصادر التشريع إلا الإجماع، والإجماع حجة لاتختص بالسلف ولا بالصحابة وإنما هو حجة في كل عصر، فإذا اتفق العلماء المجتهدون في أي عصر من العصور على حكم شرعي فهو حجة يجب الأخذ به -كما أسلفنا في التمهيد- وذلك عملاً بأدلة الكتاب والسنة، ثم إن مصطلح "سنة السلف" أو "عمل السلف" لم يظهر في عهد الخلفاء الراشدين، وإنما ظهر فيمن بعدهم بين التابعين، وإذاً فالقول بأن مصطلح السنة في عهد الخلفاء يقصد به سنة السلف هذا قول لا سند له ولا دليل.

وأخيراً فإن حقيقة سنة النبي ﷺ هو الذي قاله والذي فعله، وذلك المعنى كان واضحاً أيما وضوح بين الصحابة، سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو فيما تلاه من عهود، وكان يحتجون به فمن ذلك:

---

(١) انظر سنن أبي داود: ٣/٣١٧، وسنن الترمذي: ٤/٤٢٠، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) انظر سنن الدارقطني: ٤/٢٠٦ برقم ١٥،١٦ وانظر معرفة السنن والآثار للبيهقي: ٧/٣٦٦ برقم ٥٨٧٣، باب ما على القاضي في الخصوم والشهود، قال البيهقي: وهذا الكتاب قد رواه سعيد بن أبي بردة، وروى عن أبي المليح الهذلي أنه رواه، وهو كتاب مشهور لابد للقضاة من معرفته والعمل به، وانظر السنن الكبرى للبيهقي أيضاً: ١٠/١٣٥.

لما توفي النبي ﷺ وكان قد جهّز جيش أسامةبن زيد، فطلب الصحابة من عمر أن يشير على أبي بكر، بأن يستبدل بأسامة غيره من كبار الصحابة، وذلك لصغر سنّه، فتغير أبو بكر ووثب من مجلسه فشد عمر من لحيته، وقال: (ثكلتك أمك يابن الخطاب، استعمله رسول اللّه وتأمرني أن أعزله)[1].

ومن ذلك: لما أشار عمر على أبي بكر بجمع المصحف، أي: كتابة القرآن في مصحف واحد، فقال أبو بكر: كيف أصنع شيئاً لم يصنعه رسول اللّه ﷺ. فقال عمر: إنه لخير، ولما دعى زيد بن ثابت وكلفه بهذا الأمر، قال زيد للشيخين: كيف تصنعان شيئاً ما فعله رسول اللّه ﷺ، فقالا: إنه لخير[2].

وإذاً فمفهوم السنّة الخاصة بالنبي ﷺ، كان معروفاً لدى الخلفاء الراشدين بل ومن قبلهم.

وأما دعوى "شاخت" أن اتباع المسلمين وحرصهم على تتبع والاقتداء بسنّة نبيهم ﷺ، إنما هو من باب تقليد العرب في اتباعهم لتراث وتقاليد وأعراف السابقين، فنقول بل إن الفرق كبير وشاسع، فإذا كان تقليد العرب لسابقيهم، والمحافظة على أعرافهم وتقديسها من باب الجهل والعصبية، فإن ذلك لم يكن في اتباع المسلمين لسنة نبيهم ﷺ، بل إن طاعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته من قبل المسلمين، إنما هو من باب طاعة اللّه عز وجل الذي أوجب ذلك عليهم، وأمرهم به وجعل ذلك شريعةً لهم وديناً، فطاعة المسلمين لنبيهم والاقتداء به ليس من باب العصبية أو التقليد الأعمى، بل عن بصيرة وإيمان، بعكس اتباع العرب لتقاليد سابقيهم فإنما كان عن عصبية وجهل، وشتان بين الأمرين قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[3].

وأختم هذا المبحث برد عام على جميع الشبه التي أثارها "شاخت" وغيره في هذا المبحث فأقول:

١- يتجاهل "شاخت" أن النبي ﷺ كان أميّاً لا يعرف القراءة والكتابة، لأن ذلك يؤدي إلى هدم كل ما بناه من ادعاءات.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٢/٢٤٦.

(٢) انظر صحيح البخاري مع الفتح: ٧/٦٢٧ برقم ٤٩٨٦.

(٣) الأعراف: ٢٠٣.

٢- يحاول "شاخت" البحث عن مجرد الشبه والصلات بصرف النظر عن سلامتها، وهل صح الأخذ بها أم لا.

٣- يتجاهل حياة النبي ﷺ وعلاقاته، وهل سمحت له بتلك الصلات أم لا.

٤- يتجاهل أرباب الأديان والنحل، وهل كانوا في حالة علمية تسمح لهم بنشر أفكارهم أم لا.

٥- يتجاهل الفروق في المسائل التي اعتبرها مستقاة من مصادر داخلية أو خارجية.

٦- يتجاهل التشابه بين عموم الأديان الأخرى وخاصة اليهودية والنصرانية، دون أن يقول أن النصرانية أخذت عن اليهودية السابقة مع تصريح عيسى عليه السلام بذلك، وتطبيق حالة التشابه على الإسلام والطعن في السنة بمقتضاه.

٧- نجد أحياناً أن المستشرقين يتناقضون في دعوى التأثر هذه إزاء عناصر معينة، وذلك مثلما اعترف "شاخت" و"جولتسير" وغيرهما بتأثر السنة بمصادر داخلية وخارجية، نجد مستشرقاً مثل "موير" يقول: "ولم نجد أن محمدا -ﷺ- أدخل شيئا من طقوس النصارى وعباداتهم في الإسلام رغم أنه أدخل الكثير من شعائر اليهود. وهذا بالرغم من الإسلام لم يتأثر بمبادئ المسيحية وطقوسها..."[1].

ونجد "بيل" يقول: "وكما كانت المسيحية هي العامل المساعد على تحقيق أمجاد الإمبراطورية الرومانية، لا نستطيع أن نغفل الحقيقة الأخرى الثابتة، وهي أن المسيحية كانت من العوامل التي ساعدت المحمديين لتقوية شوكتهم أيضاً... ومما لا شك فيه أن النصارى العرب الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام كان لهم دور كبير في بناء هذا الدين وهم الذين وضحوا لمحمد ماهية الأديان، واعطوه فكرة ثابتة عن حقيقة الأديان..."[2].

ويميل المستشرق "جوزيف شاخت" إلى القول بتأثر النبي ﷺ باليهودية والنصرانية معاً -كما سبق أن بينا- مخالفاً "موير" في ذلك. وبهذا نختم الحديث في المبحث الأول من الفصل الأول، والذي كان بعنوان "مفهوم السنة لدى المستشرق "جوزيف شاخت"".

---

(1) The life of Mohammad from Original Sources P. 149.

(2) The Origin of Islam in its Christian Enviranment P.P. 2-5.